بين العقاد و الرافعي

الرافعي ومظهر و«على السفود»(*)

للأستاذ سيد قطب

— ٩ —

أجلت الحديث في الكلمة الماضية عن طابع وناشر ومروج «على السفود» الذى يعيب «الشذوذ في نصرة أديب على أديب» ليعرف الناس من أين تصدر الآراء ، وكيف تصدر ؛ وكم من الأعاجيب يكمن فى تقلب هذه الآراء وطريقة عرضها ، كلما دعا الغرض إلى عرض جديد

وأغلب الناس ممن يقرءون الرسالة قد يكونون من غير المطلعين على هذا الكتاب ، الذى قدمت له «المصور» وطبعته ونشرته . وليس من المستطاع نقل عبارات منه اليوم إليهم فى الرسالة ، مما يصور شناعة التعبير ، ويكشف مقدار التبعة فى النشر ، لأن «الذوق . والأدب . والخلق» لا تسمح باستعراض تلك الأساليب

(*) أجلت الكلام فى شرح العقاد لأكشف عن مبعث بعض الآراء فى هذا الزمان

ومن هنا أرى عن حق أن مناظرى الفاضل لم ينظر نظرة عميقة لكلامى ، وما أتي به لا يعد نقاشاً لما قلته ، لهذا أستحسن أن ينظر فى كلامى وهو منشور بالمجلة الجديدة ، ثم ينظر فى كلامه المنشور بمبدى الرسالة وردى عليه قبل أن يكتب رده ، فذلك أجدى لحسم نقط الخلاف فى الموضوع

ويبقى بعد ذلك كلمة أو كلمتان فى موضوع الموسيقى الذى أثاره المناظر ولم أجد له أصلاً فيما قلت ، ومع ذلك فأنا عند ظن المناظر أنتدب له الدكتور حسين فوزى وهو إخصائى فى فن الموسيقى وله من العلم الواسع فى هذا الموضوع ما يمكنه من بيان نواحى الزيف فى آراء المناظر ، وهو على ذلك قدير

(الاسكندرية) اسماعيل احمد أدهم

١٠٥٦٧

ولكنى سأتلطف لقراء الرسالة فى نقل بعض فصوله «البريئة» مع تقديم العذر ، فى شنعة هذه البراءة !

وسيعرف الناس كيف يكون الإنسان ، سيئ الفهم ، قاصر الاطلاع ، ثم يناقش العلماء النيرى البصيرة المطلعين ؛ ولا يكلف نفسه الاطلاع على أصل المسائل التى يناقش فيها ، ويجد من الجرأة فى نفسه أن يقول : إنه لم يطلع على هذا الموضوع ، ولكنه يجزم بأنه كيت وكيت . أما الذى اطلع فهو جاهل و . . . و . . . الخ

لشوبنهور رأى فى الجمال يلخصه العقاد ، فى أن هذا الفيلسوف يقسم الدنيا إلى « فكرة » و « إرادة » ويقول : إن الدنيا فى « الفكرة » هي الدنيا المكونة قبل أن تظهر فى حيز الأسباب والقوانين ، وعلاقات الأشياء بعضها ببعض . وإن « الإرادة » هى هذه الدنيا التى تكابد أوصابها وقوانينها ، ولا تذوق السرور فيها إلا لسبب من الأسباب التى تدور عليها أغراضنا وشهواتنا ؛ ولما كان سرورنا « بالجمال » سروراً بلا سبب ولا منفعة فهو من قبيل الفكرة المجردة ، ننظر إليها كما هى فى عالمها المنزه عن الأسباب والعلاقات »

ثم يقول العقاد ما ملخصه : إن رأيه هو أن « الجمال » هو « الحرية » وأنه يلتقى فى رأيه هذا مع رأى شوبنهور في نقطة ويختلف معه عند أخرى . فهما يلتقيان حين يقول شوبنهور : إن الفكرة لابد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ، ومن ثم لا بد أن تكون « مطلقة » من أسر الأسباب والضرورات ؛ ويختلفان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة ، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم « الإرادة المسببة » إلى عالم « الفكرة المجردة »

ثم يرجح رأيه على رأى شوبنهور بأن الجمال يتفاوت فى نفوسنا ويتفاضل فى مقاييس أفكارنا ، ولو كان المعوّل على إدراك « الفكرة » وحدها فى تقدير الجمال ، لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء

ثم يوضح هذا بأن الشجرة كفكرة ، تستوى مع الإنسان كفكرة كذلك ، ولكن جمال الأولى أقل من جمال الثانى — مع تساويهما لو أخذنا برأى شوبنهور — وذلك لأن الثانى

أكثر حرية ، و « الحرية هي المعنى الجميل في الفكرة أو هي التي تهب الفكرة ما فيها من جمال »

وهذا — كما ترى — كلام واضح ، وهو كذلك دقيق . ولكن الرافعي لا يفهمه . وهو في عدم الفهم على درجات : بعضها يتعلق بالقصور النفسي عن تصور حالة من الحالات النفسية ، وهو ما نعذره فيه ، ولا نطالبه بفهمه . وبعضها يتعلق بالقصور في فهم الأسلوب والكلمات وهو ما لا ندري كيف نسميه .

والنوع الأول يبدو في تعليقه بالهوامش على أن السرور بالجمال سرور بلا سبب ولا منفعة ، فهو يقول : « وهل في الدنيا من يسر من الجمال « بلا سبب »

ونحن نقول له : نعم يا سيدي في الدنيا من يسر من الجمال بلا سبب ، لأن بداهته وفطرته ، تتصل مباشرة بالجمال في « عالم الفكرة » كما يشرحه شوبنهور ، فيحس بالسرور . وفي هذا العالم لا توجد « أسباب » فهذه إنما تتعلق « بعالم الإرادة » أي العالم الموجود في الخارج . وهي على كل حال مسألة تتطلب « نفساً » فلا على الرافعي منها

وهو يعلق على شرح العقاد « للفكرة » في رأي الفيلسوف الألماني بأنها بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ، ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات . فيقول : « ففكرة من تكون هذه الفكرة البعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ؟ وكيف تسمى فكرة ؟ »

وهذا القول غريب من رجل يدعي أنه يفهم الثقافة الاسلامية ويدافع عن علوم الاسلام . وفي الفلسفة الاسلامية كثير من هذه المباحث ، وقد ورد فيها ذكر « الهيولى » و « الصورة » وهي تقابل مع تعديل « الفكرة » و « الارادة » . وفي مباحث « علم الكلام » كثير من مثل هذه التعبيرات عند الكلام على صفتي « القدرة . والارادة » فمن العجب ألا يفهم إذن أن « الفكرة » بعيدة عن عالم الاسباب والضرورات . وهي على ضوء الفلسفة — ونمثل بها وحدها لما يدعيه الرافعي عنها — تمثل فكرة الخالق التي لا تتعلق بالأسباب والضرورات ، لأنه منزه عن الضرورات وهي في كلام شوبنهور تمثل فكرة القوة الخالقة — أيا كان اسمها — فدارس الفلسفة الاسلامية لا يعسر عليه فهمها ، ولا يسأل هكذا : « ففكرة من تكون ؟ »

وهذه أيضاً مسألة « ذهنية » تتطلب ذهنا مشرقا . فلا على الرافعي منها كذلك !

إنما الطامة الكبرى أن يخطئ في فهم الكلمات المفردة . وهنا قليأخذ القراء حذرهم ، فإني سأنقل لهم بعض كلام الرافعي بنصه في هذا الموضوع — مع ما يتضمنه من شتائم « بريئة » إذا قيست إلى سواها ، ونحن نكتبه بنصه وبعلامات ترقيمه :

إنه يقول :

« بيد أن العقاد يقول بعد ذلك : « أين نتفق في هذا الرأي وأين نفترق ؟ (ماشاء الله أين يتفق العقاد وشوبنهور وأين يفترقان) وأين يتساوى القول بأن الجمال فكرة ، والقول بأن الجمال حرية ؟ يتساويان حين نذكر أن الفكرة في رأي شوبنهور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات . ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الأسباب والضرورات »

« ثم أين يتعارضان . (المراحيضي وشوبنهور) ؟ يقول العقاد : يتعارضان حين نذكر أن الحرية لا تكون بغير إرادة ، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم الارادة المسببة إلى عالم الفكرة المجردة »

« وما الذي يرجح رأي فيلسوفنا ! المراحيضي ! بأن الجمال هو الحرية ، على رأي شوبنهور بأن الجمال فكرة ؟ يقول العقاد : « يرجحه أن الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس أفكارنا ؛ ولو كان المعول على إدراك الفكرة وحدها في تقدير الجمال لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء »

« ونوضح ذلك فنقول : لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط ، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة (افهموا ياناس) ولصح لنا أن نزعم أن الناس أجمل من الأشجار (برافو مراحيضي) ولكننا نعلم أن فكرة الانسان غير فكرة الشجرة (تمام تمام !!!) وأن الفكرتين تتفاضلان في تقرير الجمال (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها !) ولا بد أن يكون تفاضلها بمزية أخرى فما هي تلك المزية ؟

« قال المراحيضي . هي الحرية : فالانسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية (برافو . برافو !) ولذلك هو أجمل منها (ياسلام ياسلام على هذا المنطق . في رأي من هو أجمل منها ؟ في رأي الجبل

بالطبع لأنه لا بد من حكم بينهما يحكم أيها أجل . وإلا فما الذى يمنع الشجرة أن تحكم لنفسها كما حكم الانسان لنفسه ؟) »

والتعليقات التى بين أقواس كبيرة هى كلام الرافعى . وهى كلها قد نشأت من عدم فهمه للفظة واحدة في جملة العقاد : « لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فقط ، لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة » فالعقاد يريد بقوله « فكرة الانسان » الفكرة التى صُورت إنسانا . وبقوله « فكرة الشجرة » الفكرة التى صُورت شجرة . فيفهم صاحبنا « فكرة الانسان » بأن الانسان يفكر ، و« فكرة الشجرة » بأن الشجرة لها فكرة فى رأسها ! ولما كانت الأشجار لا تفكر ، فقد راح يقول : (افهموا ياناس) وراح يقول : (صحيح لأن الشجرة تقدر جمال الناس كما يقدر الناس جمالها) . وراح يقول : (فى رأى من هو أفضل منها ؟ فى رأى الجبل بالطبع) لأن الجبل كذلك يفكر وله فكرة !

والمسألة هنا مسألة قصور فى فهم ألفاظ ثم تعالم بعد ذلك وتهكم حيث يجب الخجل والانزواء

* * *

ثم ماذا ؟ ثم أخذ يجمل هو رأى شوبنهور (الذى لم يطلع عليه باعترافه فى هامش الكتاب حين يقول : « نحن لا نثق أن ترجمة العقاد عن شوبنهور هي نص معانى شوبنهور ... إنما نذهب إلى (ما نظنه) الأصل فى غرض الفيلسوف ») !

فماذا قال ؟

« فان محصل كلام هذا الفيلسوف أن ما تراه بسبب من إرادتك وغرضك وشهواتك فجماله فيك أنت لافيه ، لأنه فى هذه الحالة صورة الاستجابة إلى ما فيك ، فلو لم يكن معك أنت هذا الغرض لم يكن معه هو ما خيل لك من الجمال ، فهو على الحقيقة « باعتبار الفكرة المجردة لا جمال فيه » (لاحظ هذا) إنما أنت صبغته وأنت أوقعته ذلك الموقع من نفسك فالنتيجة من ذلك أن الأشياء تحزننا (أى لا تراها جميلة) كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الارادة ، وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة .

« وهذا الرأى هو الرأى الصحيح فى معنى الجمال وبه يؤول اختلاف الناس فى تقدير جمال الأشياء ، لأن الجمال فى أهوائهم وأذواقهم ومعانى نظرهم »

وإن الانسان ليفغر فاه عجباً من هذا التلخيص الرافعى لنظرية شوبنهور بل هذا المسخ الذى يمسخه للفيلسوف المسكين . ويحار في السؤال من أين وكيف يلتقى هذا الملخص بأصل الرأى ، وما بينهما شبه ولا اقتراب فى أى لمحة من اللمحات

ثم هذا الخلط بين الرأى الذى جاء به الرافعي وبين رأى شوبنهور ، ونسبة كلام إلى الرجل هو يقول ضده تماماً . الفيلسوف يقول : إن الأشياء « تسرنا » كلما قربت من عالم الفكرة وابتعدت عن عالم الارادة . فيقول الرافعى عنه : إن الأشياء « تحزننا » كلما ابتعدت من عالم الفكرة واقتربت من عالم الارادة . وهو عكس قول شوبنهور . ثم يعود فيقول : « وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة » وهو عكس كلام الرافعى الأول !! فأيهما يريد ؟ أغيثونا بالله يا أصحاب الفهم وقولوا لنا : متى تفرحنا الأشياء ومتى تحزننا ؟ وأى القولين ينسبه الرافعى لشوبنهور وأيهما ينفيه عنه ؟

ولا يقنع الرافعى بهذا ولكن اسمعه يقول :

« على مثل تلك الطريقة من التباوة . وسوء الفهم وقبح الاجتراء والغرور والحماقة ، تجد كل ما يولده العقاد ، أو أكثره ، ثم يزين له لؤم نفسه وعمى بصيرته أنه هو وحده الذى يهدى إلى سرائر الأشياء ويلهم حقائق المعانى ... الخ »

ولو لا أننا نسمو بآدابنا وآداب المجتمع ، لرددنا هذه الكلمات إلى من يستحقها — بعد هذا البيان — من الرجلين !

* * *

وبعد فقد نشر صاحب « العصور » هذا الكلام فى مجلته ، ثم جمعه وطبعه وقدم له معجباً مستحسناً . فهل كان يا ترى يعلم هذا الخطأ فى الفهم وذلك التخليط ، أم لم يكن يعلم ؟ وإن كانت الأولى فكيف لم ينبه صاحبه إليه ؟ وإن كانت الثانية ، فكيف يتفق هذا مع علمه واطلاعه ؟

ثم ألم يجد جملة نابية ، ولا لفظة خسيسة ، في هذا النقد ؟ بل ألم يجد فيه « شذوذا » ولم يلمح أن ليس وراءه انتصار لمذهب بيّن فى الأدب ، وإنما وراءه ارواء حفيظة شخصية بحتة ؟

أفتونا أيها المنصفون ، المتعالون عن الشخصيات !

« حلوان » سيد قطب